دراسات فنية
مخبر الفنون والدراسات الثقافية
جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان
Algerian Scientific Journal Platform

المجلد:08 العدد: 01.**(2022)** **ص.177./188.**

ملامح العمارة الإسلامية في الرسم الاستشراقي

Feature of Islamic Architecture in Oriental Painting

بلقاضي محمد

جامعة زيان عاشور الجلفة– البريد الإلكتروني m.belkadi@univ-djelfa.dz

تاريخ الارسال: 2022-11-01 **تاريخ القبول:2022-12-22** **تاريخ النشر:29–12–2022**

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2020/...../.....
تاريخ القبول: 2020/..../...

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الاستشراق
- ✓ العمارة الإسلامية
- ✓ اللوحة البصرية
- ✓ الشرق

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على العمارة الإسلامية في الرسم الاستشراقي، ببيان اهتمام الفنانين والمعماريين المستشرقين بمعالم العمارة الإسلامية، وهندستها وجمالياتها، من خلال قراءة بعض اللوحات الفنية التي صورت هذه العمارة بأنواعها، تصويرا بليغ الوصف، تضمن تفاصيل معمارية دقيقة من زخارف ومنمنمات وأشكال هندسية وتناسق الأشكال والألوان، أرّخ لتاريخ العمارة الشرقية.

توصلت هذه الدراسة إلى أن الرسم الاستشراقي رغم التزييف الذي طال جزءا منه ورغم تعدد أهدافه إلا أن اللوحة المعمارية الاستشراقية تميزت بقيمة توثيقية مهمة، حفظت جزءا مهما من التراث المعماري، وأرخت لتاريخ العمارة في العام الإسلامي قبل اختراع التصوير الفوتوغرافي، كما ظلت شاهدة على عمائر غيّر الزمن والطبيعة ملامحها.

Article info

Received ……..
Accepted ……..

Keywords:
- ✓ *Orientalism*
- ✓ *Islamic Architecture*
- ✓ *Visual Painting*
- ✓ *Orient*

Abstract :

This research aims to shed light on Islamic architecture in Orientalist painting, by showing the interest of Oriental artists and architects in the features of Islamic architecture, its architecture and its aesthetics, by reading some of the paintings that depicted this architecture,of all its kinds, in an eloquent description that included accurate architectural details of decorations, miniatures and geometric shapes,

the consistency of shapes and colors, and that chronicled the history of Eastern architecture.

This study concluded that Orientalist painting, despite the falsification that affected part of it and despite its multiple goals, was distinguished by an important documentary value, which preserved an important part of the architectural heritage, and chronicled the history of architecture in the Islamic world before the invention of photography, as it remained a witness to the buildings that

time and nature changed their features.

المؤلف المرسل: بلقاضي محمد

1. مقدمة:

إن التقاء الحضارات والتواصل والاحتكاك فيما بينها يعد معلما من معالم التاريخ الحضاري للإنسانية، وهو مكسب كبير يجب أن يستغل في بناء عالم حضاري إنساني ثري يتسع لكل الأجناس والثقافات، تتسع فيه الأوطان وتضيق مساحات الخلاف وفق قاعدة "التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام، وبين ما هو خصوصية حضارية"، ولأن الحضارة عبارة عن كيان ثقافي واسع وممتد، ليس له حدود ولا بداية ونهاية، فلا توجد حضارة نشأت من تلقاء نفسها وبمعزل عن الحضارات الأخرى، تأتي الحاجة إلى الحوار بين الثقافات والحضارات لخلق جسور التواصل والتفاهم بين الأمم والشعوب.

وبقدر ما تعظم الحاجة إلى الحوار ومدّ جسور التفاهم بين الأمم، تقوم الضرورة القصوى لتهيئ الأجواء الملائمة للبحث عن آليات هذا اللقاء والتواصل، وقد كانت الفنون من أهم المنجزات الحضارية التي شكلت همزة وصل بين الشعوب. والحضارة الإسلامية منذ نشوئها وتكوّنها، وإسهامها في الحضارة العالمية، جلبت اهتمام الغرب للتعرف على مكوناتها، ومن ذلك الفن الإسلامي بقوته وشموله وتصميماته المختلفة وخاصة في مجال العمارة استطاع أن يضع نفسه في مصاف الفنون العالمية الأخرى القديمة التي كانت لها شهرة كبيرة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، حيث استطاع أن يكون نقطة التقاء بين الشرق والغرب نظير الاهتمام البالغ الذي أولاه المستشرقون بهذا الفن، لا يسما فن العمارة الذي يحكي تاريخ الشعوب وهوياتها.

وفي هذا الصدد تحاول هذه الدراسة حول موضوع الاستشراق الفني خاصة في القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي تكتسي أهمية بالغة والتي عرفت تطور العملية الاستشراقية بمقوماتها وخصائصها، وبإنتاجها الفني الغزير. ببيان مكانة العمارة الإسلامية الشرقية في الفن الاستشراقي باعتبار الوظيفة الكشفية التي أنيطت به في عرضه للمكونات الثقافية والتاريخية للعالم الشرقي، وتقصي القيمة الوصفية التوثيقية لهذه العمارة وجمالياتها في اللوحة الفنية الاستشراقية، محاولة الإجابة على الإشكالية التالية:

ما مكانة العمارة الشرقية من اهتمام الفنانين والمعماريين الغربيين، وكيف تجلت صورتها في الرسم الاستشراقي؟ وإلى أي مدى التزم الفنان المستشرق بالدقة في عرض تفاصيل العمارة الإسلامية في لوحاته؟

تهدف هذه الدراسة إلى بيان اهتمام المؤسسة الفنية الاستشراقية بالعمارة الشرقية في العالم العربي والإسلامي، وعرض محتوى المنجز التشكيلي المصوَر الذي أنتجه الفنانون المستشرقون للآثار المعمارية المختلفة في العالم الشرقي وإظهار جمالياتها.

استخدمت الدراسة المنهج التاريخي في الحديث عن الفن الاستشراقي وعلاقته بماضي العمارة الإسلامية في الشرق، بالإضافة إلى المنهج الوصفي في سياق دراسة بعض النماذج الفنية التي تناولت العمارة الإسلامية.

2. الاستشراق في فن التصوير

إضافة إلى أسباب ظهور الاستشراق بصفة عامة، نجد أن انبهار الفنان الغربي بالحياة الشرقية وسحر الطبيعة الخلابة و جمال الصحراء... من أسباب التفاته إلى الشرق والاهتمام بتصويره، فالكثير من الفنانين التشكيليين العالميين وقفوا مدهوشين أمام الجمال الطبيعي الخلاب لبلاد الشرق، وأمام ثراء تراث المنطقة المادي واللامادي، المتميز بخصائصه الحضارية، المعمارية والبيئية، فنقلوا ما شاهدوه وانبهروا به في لوحات فنية حكت للغرب حياة غريبة غير مألوفة، نقلت بعضها عن الواقع مباشرة، ونسجت أخرى من خيال خصب تشبع بحكايات الشرق الغامض الساحر في الأدب والفن.

لقد كانت طبيعة الموضوع الذي تناوله هذا الفن عاملا جعله يفرض نفسه بقوة، من خلال تصويره للشخصية الشرقية، وإبراز ملامح الحضارة التي تجسدت في الحياة اليومية للإنسان الشرقي، كما وثقت هذه الأعمال تراث وفلكلور المنطقة، وسجلت جزءا من تاريخه. إضافة إلى تمثل هذا الفن في محاكاة القوالب الفنية الإسلامية من أشكال الأرابيسك، والرقش، والنقش، والتوشية والزخرفة الهندسية والألوان المزركشة في الفنون

التطبيقية التزيينية، وفي فن العمارة، تطعيم العمارة الغوطية والرومنسكية[1](في مدن فرنسا الجنوبية وإيطاليا وصقلية) بعناصر العمارة الإسلامية (البيطار، 1992، صفحة 24)، فكان المنجز الفني الاستشراقي متنوعا ثريا ثراء البيئة الشرقية وتنوع خصائصها. وهذا ما يبرر لجعل الفن الاستشراقي موضع اهتمام النقاد والمؤرخين وعلماء الجمال في الشرق والغرب، ومنجزه الفني مادة للتحليل والبحث والتقييم.

لقد أثارت تفاصيل الحياة العربية التي صورتها قصص شهرزاد وكتاب ألف ليلة وليلة الذي ترجمه إلى الفرنسية أطوان غالان Antoine Galland (1646م ـ1715م) سنة 1704م، أثارت مخيلة الأوروبيين، فاستقطب هذا الشرق اهتمامهم وكان ميدانا خصبا للدارسين والباحثين وملاذا الفنانين وغذاء لوجدانهم. انطلقت حركة الاستشراق. وفي هذا الصدد تقول "لين تورنتون Lynne Thornton": "في الفترة الممتدة من القرن الثامن عشر ولغاية العشرينات من القرن العشرين، تمتعت القصص النابضة بالحيوية التي ترويها شهرزاد في "ألف ليلة وليلة"، وهو الكتاب المعروف على نطاق واسع في أوروبا باسم "الليالي العربية" بنجاح ملحوظ ومستمر في الغرب، ورغم تمتع القصص بمغزى روحاني قوي، إلا أن مواضيع الجنس، الحب، العنف، المكر والخداع وروح الدعابة التي تضمنتها، هي التي تركت الانطباع الذي لا يمكن إزالته عن عالم الشرق بأنه خيالي، شهواني وعنيف. وبالإضافة إلى ذلك فقد أصبح الخلفاء والوزراء، الحواشي والمحظيات الذين ظهروا من خلال صفحات ذلك الكتاب أنماطا تتكرر في أعمال المستشرقين" .(ثورنتون، 2007، صفحة 5)

لقد كان تاريخ الفن الإسلامي بصفة عامة ومجال العمارة بصفة خاصة، من أكثر الموضوعات التي حازت اهتمام الفنانين الغربيين، نجد منهم كارباشيو Vittore Carpaccio (توفي في 1526م) الذي صور متخيلاً، مسجد عمر والمسجد الأقصى، كما رسم الناس بالأزياء الشعبية العربية، كذلك فعل "فيرونير" عندما كسا بعض شخوصه العرب بقماش البروكار المصنوع من الخيوط الحريرية الطبيعية، وحاول أن يتخيل الطابع الصحيح على أقرب وجه. (زين، 2016) فقد كثفوا جهودهم لنقل جمالياتها وخصائصها المتميزة بإبراز أنماطها الإسلامية من الأرابيسك والنقش والزخرفة الهندسية والألوان، وقد ظهر إعجابهم وتأثرهم بها في نقلها إلى أوروبا كتزيين جدران القصور (مثل قصر شقيق نابوليون) بأشكال وزخارف من المساجد والسجاد الإسلامي .(حسني، 2012، صفحة 182)

3. اهتمام الفنانين المستشرقين بالمعمار الشرقي

تعتبر العمارة الإسلامية من أنبل الفنون الإسلامية وأكثرها شيوعا بين الناس، أنتجها واستعملها المسلمون لتكون هوية لهم في جميع المناطق التي وصلها الإسلام، حيث اعتبرت العمارة أم الفنون، فقد كانت ميدانا تلتقي فيه العديد من الأنشطة الحرفية والفنية كالبناء، النجارة، النحت، الجص، الحجر، الشمسيات والقمريات، كسوة الحوائط بالفسيفساء، وترابيع الخزف والخط والكتابة العربية .(عليوة، 2017، صفحة 641)

ولقد كان اهتمام الغرب واضحا بالعنصر المعماري الشرقي والإسلامي، فوصف الكتاب الأوروبيون مسجد السيدة ومسجد كتشاوة علي بيتشين بالجزائر وغيرها من المساجد التي اشتهرت بالجمال وثراء المادة وحسن الذوق. (عمراوي، 2018، صفحة 13) ورغم انقسام المستشرقين حول أصالة العمارة الإسلامية، ووجود من اعتبر أن هذه العمارة مستعارة من الحضارات الأخرى للمناطق التي فتحوها، ولا سيما بلاد فارس (nabila & volait, 2009, p. 14)، إلا أن ريشة الرسامين الرحالة المستشرقين وجدت منذ مئتي عام في العمارة العربية الإسلامية الجمال الذي كانت تبحث عنه، والسحر الذي جالت لأجله في كل مكان لترسمه وتنقله إلى العالم، ونظرا للجمال الخلاب الذي امتازت به العمارة العربية الإسلامية، اهتم بها الرسامون ومن هؤلاء باسكال سكوت Pascal Coste (1787م ـ1879م)، ديفيد روبرتس David Roberts (1796م ـ1865م)، وغيرهم. واعتبرت لوحات الفنانين المستشرقين بما احتوته من إبداع والدقة في التفاصيل وثائق تاريخية مرئية لمعالم الهندسة المعمارية العربية الإسلامية من بيوت وقصور ومساجد وحصون، إضافة إلى أشكال وتصاميم القرى والمدن والأسواق.

بما أن الرسم الاستشراقي كان في خدمة الإدارة الاستعمارية، فإن تصوير العمارة كان في المرتبة الأولى من أجل جمع المعلومات عن البلاد التي كان الأوروبيون آنذاك يتوجسون خيفة من أسطولها القوي، وهيمنتها على حوض البحر الأبيض المتوسط، وبالتالي ركّز الرسامون المستشرقون في الجزائر مثلا على تصوير حصن القصبة وأسوارها وأبوابها وواجهاتها البحرية، وقد أشارت الكاتبة ماريون فيدال بوي Bué-Vidal

[1] العمارة الرومانسكية هي إحدى مراحل تطور العمارة المسيحية في غرب أوروبا وذلك بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية. وأخذت هذه التسمية لأنها كانت في بادئ الأمر تشبه العمارة الرومانية الكلاسيكية. (https://cutt.us/0OcSv)

Marion إلى هواة الرسم من التجار الذين تمكنوا من رسم مخطط مدينة الجزائر كما تراءى لهم من السفن التجارية، غير أن ما تراه الكاتبة من منظورها الفنّي على أنه هواية، يرجح من المنظورين السوسيولوجي والأمني أنه رصد وجوسسة بالنظر إلى تسليط الضوء على المخططات العمرانية والعمارة العسكرية في صور بيانية استطلاعية في شكل أعمال فنية .(قجال، 2019، الصفحات 147-148)

وقد لمعت في الفن الاستشراقي عدة أسماء لفنانين اشتغلوا على الظاهرة المعمارية في العالم الإسلامي والشرقي ومنهم:

إميل بريس Émile Prisse d'Avesnes (1807م ـ1879م) الكاتب والرسام، ألّف عملًا متعدد الأشكال حول آثار مصر، والتي إكتُشفت صدفة اثناء تجنيد عناصر في الكلية الحربية المصرية إثر تدريب خاص بالهندسة في كلية الفنون والمهن عام 1827م، وبعد دراسته للهندسة في كلية الفنون اكتسب جانبا تقنيا ساعده في دراسة "صروح مصر العظيمة" واكسبته سنين عمله مع الدولة المصرية معرفة جيدة بالمنطقة، فتردد على عديد المواقع الأثرية وقام بتنقيبات استكشافية واثريّة في محيطه، كما زار العديد من الأماكن المقدسة، وتفحص هندستها وزخرفها، فكانت الحصيلة الكثير من الرسوم و النسخ التي أنجز منها خلال عشرة أعوام "أطلس الفن العربي الكبير" الذي ضمه 175 رسما ملونا، وأسعدت هذه الرسومات الكثير من المزخرفين الذين استعملوها في التزيين الداخلي. (volait, 2019)

المصمم المعماري الإنجليزي أوين جونز Owen Jones (1809م ـ1874م) الذي يعتبر من أشهر المعماريين في القرن التاسع عشر، وصاحب النظريات العلمية في مجال الزخرفة والرسوم المسطحة التي لا يزال صداها ياقيا حتى اليوم. حيث شرع هو وزميله المعماري الفرنسي الذي تعرف عليه أثناء جولاته السياحية الاستكشافية في تركيا وإيطاليا وأثينا واليونان بدءا من 1832م، شرعا في دراسة وتصوير العمارة الإسلامية في مصر والمشاهد الأثرية لها، فصوروا عدة مشاهد بالقاهرة عام 1833م، ودفعهما جمال هذه العمارة وروعتها إلى الانتقال إلى إسبانيا من أجل مشاهدة روائع العمارة الإسلامية هناك في غرناطة، وأمضيا ستة أشهر في قصر الحمراء. كما ظهرت ملامح العمارة الإسلامية التي أسرته في تصميم العديد من الزخارف الحديثة وإدماجها في عمارة أوروبا مع المحافظة على طابعها الإسلامي. (الحي، 2012، الصفحات 1241-1243)

4. العمارة الإسلامية في لوحات المستشرقين

إن مظانَ العمارة الإسلامية هي مختلف المباني والأحياء والمدن والمناطق ذات القيمة المعمارية وما احتوت من عناصر وأشكال وأساليب معمارية تعكس خصائص الحضارة الإسلامية وثقافتها، وهو ما يسمى التراث المعماري، والذي يمكن تصنيفه إلى:

- مباني تراثية: وهي المباني التاريخية، الأثرية والفنية بما احتوته من زخارف والأثاث المرتبط بها
- مناطق التراث العمراني: وتشمل المدن والقرى والأحياء ذات الأهمية التاريخية والأثرية والفنية، بكل مكوناتها من نسيج عمراني، ساحات عامة، أزقة ...
- مواقع التراث العمراني: وهي مواقع تحوي المباني المرتبطة ببيئة طبيعية متميزة على طبيعتها أو من صنع الإنسان. (سارة، 2021، صفحة 387)

1.4. العمارة المدنية

لقد كان اهتمام الفانين المستشرقين بالعمارة المدنية اهتماما بالغا نظير الإعجاب الذي نالهم بجمالها، فقد سحرتهم هندسة مدنها وتصميم مساكنها وجمال أزقتها وشوارعها.. ومن مظاهر هذا الاهتمام، تشكيل لجان خاصة مهمتها دراسة المجتمعات الشرقية وتراثها الحضاري، مثل لجنة اكتشاف الجزائر العلمي وهي لجنة علمية تأسست في فرنسا في 14 أوت 1837م، وكانت على غرار لجنة دراسة مصر وسورية، وكان فيها مختلف المتخصصين، وأغلبهم كان من العسكريين. وقد تم اختيار بعض أعضائها من طرف أكاديمية الآداب والفنون، فكان منهم مختصين اثريين كعالم الآثار الفرنسي أدريان بيربروجر Adrien Berbrugger، والذي كان محافظا لمكتبة الجزائر العامة. ومهما تعددت ميادين أبحاثها والذي كان ميدان الآثار واحدا منها لا تخرج عن ثلاثة أقسام هي: العلوم الفيزيائية، العلوم التاريخية والفنون الجميلة، وتظهر اهتمامات المجال المعماري ومخرجاته في قسم الفنون الجميلة، وكذلك في قسم العلوم التاريخية كون المجال المعماري الأثري يتقاطع مع الدراسات التاريخية. (القاسم، 2007، الصفحات 79-82)

لقد كانت الأنماط المعمارية للمدن والبيوت والأسواق وغيرها موضوع العديد من الأعمال الفنية للرسامين المستشرقين. فعن معمار الجزائر نجد رسومات دولاكروا Eugène Delacroix (1815م ـ1863م) وشاسيرو Théodore Chassériau (1819م ـ1856م) وفرومنتان Eugène Fromenten (1820م ـ1876م) الذي جمع العديد من اللوحات عن الجزائر في كتابه "عام في منطقة الساحل" عام 1859 وغيرهم، وعن معمار القاهرة نجد أعمال المستشرق الإيطالي هيرمان دافيد سالمون كورودي Hermann David Salomon Corrodi (1844م ـ1905م)، والألماني أندريه د. ريزير الذي عاش في الإسكندرية، وباسكال كوست Pascal Coste (1787م ـ1879م)، وبروسبير ماريلا Georges Prosper Marilhat (1811م ـ1847م) وغيرهم كثير وقد ضمت موسوعة وصف مصر[2] العديد من الصور حول العمائر المصرية القديمة والإسلامية التي كانت غاية في الدقة والتفاصيل المعمارية.

وكنموذج لهذه اللوحات المعمارية سنأخذ لوحة "شارع باب الغربي في الأغواط" من أعمال الفرنسي أوجين فرومنتان Eugène Fromenten الذي أعجب بالبيئة الجزائرية والمصرية، فتن بالسواحل الجزائرية ومدنها، فضم كتابه صورا وانطباعات عن الجزائر عكست تلك العلاقة الحميمية للفنان العاشق بالمنطقة وجمالها، وعشق صحراء الجزائر وطبيعتها، فرسم عنها عدة لوحات عرضها في باريس سنة 1857م، فنال تقدير الرأي العام. (بريغيث، 2014، صفحة 111)

الشكل1: شارع باب الغربي بالأغواط لأوجين فرومونتان

المصدر: موقع متحف شاغتغوز Musée de la Chartreuse à Douai France (https://www.museedelachartreuse.fr)

[2] وهي عبارة عن 20 مجلد ضمت مجموع الملاحظات والبحوث التي تمت في مصر خلال الحملة الفرنسية، وتمت كتابتها وتجميعها إبان الحملة الفرنسية على مصر حيث اصطحب نابليون بونابرت معه فريقا من العلماء من كافة التخصصات ليسجلوا ملاحظاتهم. (ويكيبيديا https://cutt.us/mR2qu)

لوحة "شارع باب الغربي في الأغواط" بتقنية زيت على قماش بأبعاد (142سم×102سم) رسمها عام 1859م، وهي محفوظة في متحف شاغتغوز Musée de la Chartreuse بفرنسا. وهي لوحة لم تنل من الشهرة ما نالته لوحاته الأخرى، يقدم مشهدا عن الحياة الصحراوية في صورة قاسية، وكأن هذه الحياة على هذه الأرض تحدَ كبير بإظهار الجانب القاسي منها، حيث تبدو الشمس حارة ومحرقة من شدة الإشعاع، فالشمس موجودة في كل مكان في المشهد، لذلك يظهر مجموعة من الأشخاص بالزي التقليدي الجزائري مستلقون على الأرض في ظل الحائط هروبا من الشمس.

يصور فرومونتان حي أو شارع من بيئة صحراوية وهي منطقة الأغواط فوق أرض صخرية جافة ومتصدعة من شدة الجفاف، كما تبدو الأرض المشيد عليها البناء مائلة وهذا لتسهيل انسكاب وجريان مياه الأمطار وتجنب الفيضان، وتظهر اللوحة جملة من الخصائص المعمارية:

هندسة معمارية تلائم وتناسب احتياجات الإنسان في هذه البيئة، نسيج عمراني موجه نحو الداخل من خلال صحون وأفنية داخلية لتوفير بيئة أقل حرارة وأكثر خصوصية، فقلة الفتحات والنوافذ على الواجهات الخارجية توحي بتوجيه هذه النوافذ نحو الفناء الداخلي. والصحن أو الفناء من أساسيات التصميم المعماري للبيوت في البيئة الصحراوية الحارة، وهو الفراغ الداخلي الذي تتجمع حوله كل أجزاء المبنى. (حواس، 2017، صفحة 105)

المباني ملتصقة مع بعضها البعض ومتراصة ومتقابلة ومناظرة لبعضها البعض ما يوحي بكونه مجتمعا صغيرا، وتهدف هذه الطريقة في البناء إلى عدم تعريض واجهات المباني للرياح والأمطار، كما تبدو البيوت بدورين مغلقة من الخارج، وهذا من أجل توفير أكثر للظلال والتقليل من وصول أشعة الشمس.

تظهر اللوحة انسجام الطابع المعماري للبيئة في الألوان والمواد المستعملة في البناء، حيث يبدو البناء بالطين والحجارة في لونها والخشب بلونه، فتبدو الواجهات الخارجية فاتحة اللون لتعكس شدة الإشعاع الشمسي الموجه لها.

نسيج المباني ضيقة متعرجة غير مستقيمة للحصول على الظلال خلال مختلف فترات النهار كما يبدو على يمين اللوحة، ومن جهة أخرى تقلل من حركة الرياح وتأثيرها خاصة الرياح المحملة بالرمال، كما أنها ذات علاقة بعوامل نفسية كتجنب الملل وتغير الصورة أثناء المشي.

2.4. العمارة الدينية

تعتبر العمارة المسجدية أبرز مظهر للعمارة الدينية إلى جانب المدارس والتكايا، لذا فقد وجد الرحالة المستشرقون فيها ذلك الجمال الذي يبحون عنه، وقد كان من مقاصد بانييها أن يزينوها للناظرين، وخاصَة المساجد الجامعة الكبيرة التي تعد تحفة معمارية فريدة، كانت حقيقة قطع من الجمال فتن بها المستشرقون فتزينت لوحات العديد منهم بمشاهدها المختلفة والمتعددة.

ونظرا لقيمة هذه العمارة وأبعادها الروحية والعقدية في نفوس المسلمين، عمدت فرنسا اثناء احتلالها للجزائر في 1830م إلى هدمها وتخريبها لخدمة سياستها الاستعمارية، ورغم إعجابها بجمالها و هندستها إلا أنها استولت على مساجدها وحولتها إلى كنائس، فقد كان بمدينة الجزائر 112 مسجدا لم يبق منها إلا خمسة مساجد فقط، اما الباقي فقد تم تهديمها، وحُول إثنان من أكبرها إلى كنائس مسيحية منها مسجد كتشاوة الذي أصبح كاتيدرائية، ومسجد علي بتشي الذي أصبح قدسية الانتصار. (المدني، 2001، صفحة 140)

الرسام الأسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts (1796م ـ1865م) الذي اشتهر بمجموعة لوحاته التوثيقية عن مصر وبلاد الشام، وكان للمساجد نصيب كبير في أعماله فقد قام برسم جامع السلطان حسن، مسجد الغورى، وعدة أماكن بقاهرة المعز، كما قام برسم عدد كبير من المسوَدات لمدينة القدس وآثارها، وبلغ عدد الرسومات الخاصة بالطباعة الحجرية عن القدس وأمكنتها المقدسة 20 عملا، وهو أكبر عدد من الرسومات لمكان واحد في مجموعة الأراضي المقدسة. (النادي، 2021) والفنان الفرنسي ليون جيروم Jean-Léon Gérôme (1824م ـ1904م) الذي أولى العمارة الإسلامية اهتماما خاصا، حيث رسم عدة لوحات ضمَت مشاهد المساجد منها الصلاة داخل "مسجد عمرو بن العاص" ولوحة "مغادرة المسجد" ولوحة "أذان الصلاة" ولوحة "مشهد لمآذن القاهرة" (النادي، 2021)

وقد حظيت مساجد مصر بالخصوص باهتمام بالغ من الرسامين المستشرقين، منها مسجد أحمد بن طولون، مسجد السلطان فرج بن برقوق، مسجد المؤيد، مسجد السلطان قلاوون، جامع السلطان حسن الذي حظي بنصيب كبير من رسومات المستشرقين التي تدل على

انبهارهم بجماله، يقول المستشرق الفرنسي جاستون فييت Gaston Wiet (1887م ـ1971م) عن هذا المسجد: «إنه أبدع آثار القاهرة وأكثرها تفردا وقبته العظيمة ومنارته وجدرانه الشاهقة تبهر النظر، أما باب المسجد فهو تحفة فنية...» (عزت، 2011، صفحة 29) وسنأخذ لوحة «مسجد السلطان حسن بالقاهرة» سنة 1848م للرسام الأسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts (1796م ـ1865م) ، ونحاول تقصي ملامح العمارة الإسلامية فيها.

الشكل2: مسجد السلطان حسن القاهرة للرسام ديفيد روبرتس

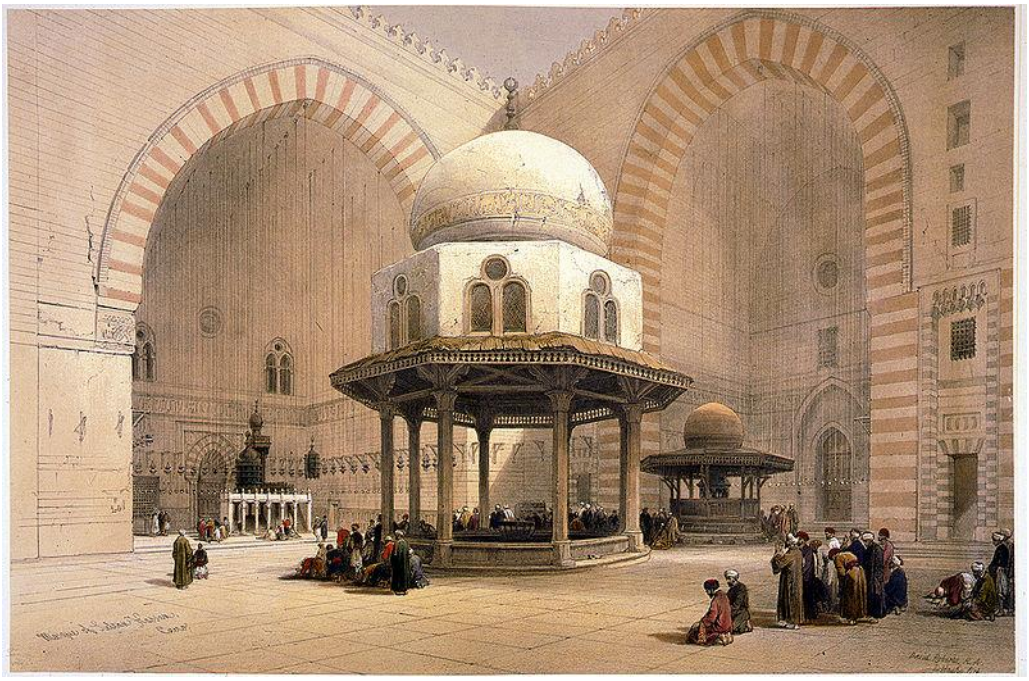

المصدر: موقع ويكيبيديا https://cutt.us/zQL2m

صور الفنان مسجد السلطان حسن من الداخل، والذي يقع بمنطقة القلعة في مصر القديمة في ميدان صلاح الدين حاليا، وقد أنجز هذا العمل منتصف القرن التاسع عشر. حيث صور الفنان مجموعة من المصلين في صحن المسجد، بعضهم في حالة صلاة منهم القائم ومنهم الراكع ومنهم الساجد ومنهم في وضع جلوس التشهد، والبعض الآخر جلوس ووقوف يتحدثون إلى بعضهم بأزيائهم المصرية الجميلة، إلا أن الطاغي على اللوحة هو جمالية عمارة المسجد الذي يعد تحفة معمارية خالدة من العمارة الإسلامية الشرقية بجماليتها وعظمها، حيث تظهر اللوحة ضخامة البناء ودقة الصناعة وتنوع الزخارف، ويمثل المسجد أرقى الأساليب المعمارية ومرحلة نضوج العمارة المملوكية.

تظهر ثلاث إيوانات يتوسطهم صحن مربع الشكل يبدو مغطى بالرخام، والإيوان الرابع هو زاوية نظر الفنان، والإيوان وحدة معمارية مربعة أو مستطيلة الشكل لها ثلاث حوائط من ثلاث جهات والجهة الرابعة تكون مفتوحة، تطل على مساحة أمامها، وعادة ما يعلو الإيوان بدرجة أو سلمة أو أكثر عن باقي أرضيات المكان ويسمى عند أهل الشام الطزر. (غزوان، 2021، صفحة 299)

يبدو الصحن رحبا وواسعا، وهذه من التقاليد المعمارية السابقة في تشييد المساجد، فيكون مؤلفا من صحن مكشوف محاط بإيوانات.

وقد تميزت العمارة الإسلامية بهذا العنصر المعماري "الصحن" وهو مساحة مكشوفة تتوسط الجوامع وفق التخطيط التقليدي المتأثر بتخطيط مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأطلق عليه عدة مصطلحات منها الفناء، الساحة، الرحبة، الباحة... (الحداد، 2008، صفحة 34)

في وسط اللوحة ميضأتان، تتكون الأولى من ثمانية أعمدة تعلوها قبة، في رقبة القبة ثُمانية الأضلاع نوافذ مستطيلة تتوسَطها من الأعلى قمرية، وفي القبة شريط كتابي لا تظهر تفاصيله.

ويبدو في اللوحة استخدام للحجر والآجر والإكساء بالرخام مع زيادة الاهتمام بطراز الأعمدة والدعامات من الرخام والغرانيت، واستعمال موفق لأعمدة قديمة.

عناصر زخرفية عديدة بدت على شكل مقرنصات وشرّافات مسننة، كما يبدو شريط الجص الموجود في إيوان القبلة (الإيوان الشرقي) وقد كتبت عليه آيات قرآنية بالخط الكوفي، ويعتبر كتابة النصوص القرآنية في معمار المساجد أمر أساسي في البناء.

دكة المبلغ التي رفعت على ثمانية أعمدة، وتظهر في مؤخرة إيوان القبلة إلى جهة الصحن، مستطيلة الشكل من الحجر، بها سلم في طرفها يُتوصل به إلى سطحها.

على حوائط المسجد خطوط متكررة فاتح وغامق، وتسمى هذه الخطوط ب"الأبلق"، وهي ميزة تميز العمارة الإسلامية لأنها تعبر عن تعاقب الليل والنهار.

يبدو إيوان القبلة (الإيوان الشرقي) أكبر من الجنوبي، وهو معقود على أقواس نصف دائرية، في وسطه محراب بديع بتصميمات متباينة مستقيمة ومنحنية، على هيئة صينية نصف دائرية تكتنفه أعمدة من الرخام المتعدد الألوان، به تجاويف رخامية، وعلى اليمين يوجد منبر تبدو قبته المخروطية الشكل والمزخرفة.

تبدو عرائس السماء في أعلى السور أو في نهايته مستوحاة من زخارف نباتية، وهي شرافات متجاورة تتجه رؤوسها إلى أعلى، موحية بارتباط الأرض بالسماء، كما تشير إلى تلاصق المسلمين وأنهم سواسية كأسنان المشط أمام الله، وتكون هذه النقشة على هيئة زهرة الزنبق لها بتلات ثلاث تحصر بين صفوفها الصماء فراغات تتشكل من زهرات شقائق متجانسة صافية شفافة كأنها اقتطعت من زرقة السماء، وما أشبه ائتلافها بالتمازج بين الروح والجسد. (عكاشة، 1994، صفحة 26)

أظهرت اللوحة ملامح رائعة من جمالية الفن الإسلامي في عمارة المساجد، والتي تعكس العديد من جوانب الإسلام كعقيدة وأسلوب حياة، والتي نقلت الروحانية والرسالة الجوهرية للإسلام من خلال لغة خالدة فريدة من نوعها. (مريم، 2019، صفحة 13)

3.4. العمارة العسكرية

يقصد بالعمارة العسكرية تلك الاستحكامات التي شيدت لأهداف دفاعية بالمقام الأول، ومنها الأبراج، الحصون، القلاع، المنارات، القصبات، الأسوار، الخنادق... وقد حرص المسلمون على بناء الحصون والقلاع على المرتفعات القريبة والمشرفة على المدن والموانئ. (عباد، 2005، صفحة 35)

ولما كان الدافع القوي والأول لاستقدام الفنانين المستشرقين وخاصة الفرنسيين منهم هو خدمة الهدف الاستعماري والعمل تحت رعاية السلطة العسكرية كعناصر استخباراتية، كان الاهتمام بالعمارة العسكرية كبيرا جدا بغرض وصف البيئة العمرانية وقوتها وحصانتها وتقديم تقارير إعلامية إلى السلطة الاستعمارية، من أجل إعداد العدة اللازمة والتخطيط المحكم للهجمات العسكرية، وقد أدت رسومات حصن القصبة في الجزائر العاصمة المهمة الاستخباراتية للمؤسسة العسكرية الفرنسية، وإن كان الدافع الظاهر لهذه الرسومات غير ذلك كما ذكرت الكاتبة ماريون فيدال بوي marion vidal bué مشيرة إلى مخططات مدينة الجزائر التي رسمها هواة الرسم من التجار الذين انبهروا بسحر المدينة وجمال معمارها، فرسموها كما تراءت لهم من السفن التجارية، إلا أنه يرجح من المنظورين السوسيولوجي والأمني أنه رصد وجوسسة بالنظر إلى تسليط الضوء على المخططات العمرانية والعمارة العسكرية في صور بيانية استطلاعية في شكل أعمال فنية. (قجال، 2019، صفحة 174)

ومن هذه المنشآت العسكرية الهامة في العلم الشرقي هناك قلعة حلب الشهيرة، وقد كانت حلب أوسع بلاد الشام، وكانت مركزا عسكريا متقدما، وقاعدة هامة للجهاد والمقاومة ومركزا فكريا مرموقا نافس بغداد وقرطبة، كما أن وقوعها في ملتقى طرق استراتيجي جعل منها مركزا تجاريا مهما بين الشرق الأقصى وأوروبا خلال القرن السادس عشر إلى الثامن عشر الميلادي. (قجة، 2022، صفحة 40)

أما قلعتها فهي قلعة وحصن عسكري من أهم وأكبر القلاع في العالم، ويعود تاريخ القلعة إلى عصور قديمة، ما قبل الفتح الإسلامي. (شعث، 1996، صفحة 55) وكانت حصنا منيعا ضد الغزاة والمعتدين، رفعت جبين مدينة حلب، من أجل ذلك حرص السلاطين والولاة

على ترميمها وتجديد هياكلها وإبقائها قوية منيعة، الأمر الذي جعلها نموذجا فريدا من العمارة العسكرية في بلاد الشام كلها لمناعتها وتعدد عناصرها الدفاعية. (شعث، 1996، صفحة 98)

حظيت باهتمام الفنانين والمعماريين وأثارت مشاعرهم وألهمت ريشاتهم، هي قلعة حلب، والتي تقع في مدينة حلب شمال سوريا، حيث تناول الفنانون في لوحاتهم معالم المدينة الأثرية والتاريخية، وأبدعوا في تصوير هندستها المعمارية ووثقوا قلعتها، حيث عكست هذه الأعمال القيمة التاريخية والرمزية للمدينة. ومن هذه الأعمال نذكر:

لوحة للرحالة والرسام الأسكتلندي "ألكسندر دروموند Alexander Drummond" المتوفي سنة 1769م، والذي مكث في حلب قرابة الثمان سنوات (1751م ـ 1758م) صور قلعة حلب بقبابها التسع كما كانت عليه قبل الزلزال المدمر سنة 1822، كما أظهر فيها سقف قاعة العرش. ولوحة "بانوراما حلب" للرسام الهولندي "كورنيليس دوبران" Cornelis de Bruyn (1652م ـ1726م)، التي صور فيها المدينة القديمة محاطة بالأسوار، وهي ضمن أعمال تصويرية أخرى ضمنها كتابه "رحلات إلى المشرق". ولوحة أخرى للرسام "درموند" نشرتها إحدى الصحف الفرنسية سنة 1857، ولوحة لمدينة حاب وقلعتها لألبير بوخة (1842م ـ1929م) وهي تحفة فنية رغم عدم اكتمالها. (يوسف، 2014)

والصورة التي نحاول وصف محتواها المعماري هي صورة لقلعة حلب Château_dAlep للفنان الفرنسي والخبير بالآثار والعمارة الإسلامية جوزيف فيلبير دوبرانجي Joseph Philibert Girut de Prangey (1804-1892)، وهي من المطبوعات الحجرية قام برسمها عام 1843م.

الشكل3: قلعة حلب للرسام جوزيف فيلبير دوبرانجي (1843)

المصدر: موقع https://cutt.us/AbDvd

يصور الفنان برج المدخل الرئيسي لقلعة حلب الذي يقع في الجهة الجنوبية للقلعة تصويرا في غاية الدقة والجمال والواقعية وكأنها صورة فوتوغرافية، بتفاصيل معمارية متنوعة أظهرت قيمته المعمارية الكبيرة التي توازي قيمته العسكرية.

تظهر الصورة القلعة من جهة مدخلها الرئيسي مشيدة على تلة مرتفعة، بسورها البيضوي مبنية في نسق معماري متماثل، وسفوح التلة كلها مكسوة ومغطاة بأحجار كبيرة مرصوفة زيادة في تحصين القلعة ومنع المهاجمين من تسلق أسوارها.

تظهر الصورة عمارة رغم تميزها بالبساطة إلا أنها تبدو فيها القوة والصلابة، والإعجاز في تحصينها والإتقان في تخطيطها وبنائها، توحي من واجهتها بمدى كبر وضخامة القلعة. وفعلا تعتبر القلعة ضخمة لعديد المرافق التي توجد داخلها، من فناء واسع وقصور وغرف للجنود ومسجد ومخازن للمؤن والأسلحة وعدة مَرافق أخرى.

وثقت اللوحة لخصائص العمارة العسكرية الإسلامية في أسوارها وأبراجها وأبوابها، وبعناصرها الزخرفية وطابعها الجمالي، فتبدو أسوار عالية مبنية بحجارة ضخمة منتظمة، تعلوها أبراجا مهيئة لعملية الدفاع والمراقبة.

يصور الفنان برج متقدم عن برج المدخل، وهو برج أمامي متقدم مستطيل الشكل عاليا تتوسطه باب ينفذ من خلاله إلى جسر حجري، يوصل إلى برج ضخم مرتفع تتوسطه باب مدخل القلعة، احتوت الأبراج على فتحات للرؤية ولتسديد الضربات، كما تبدو في الأسوار المزاغل هي فتحات ضيقة من الخارج وواسعة من الداخل لتسمح للرماة بالتمركز بها وتسديد ضرباتهم المحكمة منها من دون أن يتعرضوا لخطر الإصابة من المهاجمين، وكما تبدو أيضا السقاطات على الأسوار وتتكون من شرفات بارزة عن السطح الخارجي للجدران أو السور وتفتح فيها عدة فتحات متجهة إلى الأسفل لأجل غاية وظيفية دفاعية تمكّن المتحصن بالبرج من إلقاء مواد كاوية كالزيت أو الزفت أو الماء المغلي من خلال تلك الفتحات على الأعداء أثناء محاصرتهم القلعة ووجودهم تحت الأسوار (شافعي، 1994، صفحة 274)، بالإضافة إلى تسديد السهام من المزاغل بالاحتماء خلف جدرانها الأمامي.

كما يظهر الجسر الرابط بين المدخل المتقدم بالمدخل الرئيسي للقاعة، وهو جسر حجري قائم على ركائز ودعامات حجرية مشكلة أقواس من نوع العقد المخموس.

الشكل4: صورة توضيحية لشكل السقاطات

المصدر: موقع https://cutt.us/hkdet

الشكل5: صورة توضيحية لشكل المزاغل

المصدر: https://cutt.us/nWYi0

5. الخاتمة:

من خلال هذا العرض الموجز عن الملامح المعمارية الشرقية ضمن المنظومة الاستشراقية وعناصرها من فنانين ومعماريين ومفكرين، وعن المحتوى المعماري وقيمته في اللوحة الفنية الاستشراقية، توصلت الدراسة إلى ما يلي:

يكتسي الاستشراق الفني أهمية كبيرة في تاريخ الفن الذي يعتبر أحد مصادر التاريخ الإنساني رغم تعدد دوافعه وأهدافه التي لا صلة لبعضها بالفن.

كانت اللوحات المعمارية التي قدمها المستشرقون لوحات تنبض بالسحر وتفيض بالجمال، سعت في عمومها إلى مقاربة ومحاكاة الواقع ورصد العمائر المتنوعة، من أجل استجلاء المشهد المعماري المشتمل على العديد من الحقائق الفنية عبر أرجاء العالم العربي والإسلامي، وقد

حققت هذه الأعمال الفنية في التراث الاستشراقي عملية الإدراك الفني في إيصال الصورة الانطباعية عن العمارة الشرقية، كما كانت قرائن ودعائم للتاريخ المكتوب.

قدمت الرسومات المعمارية الاستشراقية خدمات جليلة للدراسات الأثرية والمعمارية في العالم الإسلامي ضمن ما قدمه الغربيون من مؤلفات وتخطيطات وأطالس.

إن رسومات الفنانين المستشرقين رغم بعض الزيف الذي طالها تعد وثائق مصورة بالغة الأهمية قبل اكتشاف وسائل التصوير الحديثة، حفظت جزءا هاما من ذاكرة الشعوب الشرقية وتراثا تاريخا ثريا.

وكتوصيات في آخر البحث علينا أن ندرك أن الاستشراق في الفنون التشكيلية بقي هامشيا في اهتمام الباحثين والدارسين العرب بالمقارنة مع الأنواع الأخرى من الخطابات الاستشراقية. ولذلك ينبغي تشجيع الأبحاث المتعلقة بموضوع المنجز الفني الاستشراقي ودفعها إلى الإلمام بجميع جوانبه وألّا تكتفي بالجوانب التوثيقية والتاريخية.

6. قائمة المراجع:

- **المؤلفات:**

حسني إيناس. (2012). الاستشراق وسحر حضارة الشرق. الإمارات العربية المتحدة: دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع.

المدني توفيق. (2001). هذه هي الجزائر. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

ثروت عكاشة. (1994). القيم الجمالية في العمارة الإسلامية. القاهرة : دار الشروق.

قجة حسن. (2022). حلب في كتابات المؤرخين والباحثين والزوار. لايدن هولندا: دار بريل.

البيطار زينات. (1992). الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي. الكويت: سلسلة عالم المعرفة.

أبو القاسم سعد الله. (2007). تاريخ الجزائر الثقافي (المجلد 6). الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.

أبو بكر عزت سماح. (2011). في جيبي قلعة ومعبد. مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

شعث شوقي. (1996). قلعة حلب تاريخها ومعالمها الأثرية (ط 1). حلب: دار القلم العربي.

عباد صالح. (2005). الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1832). الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر.

لين ثورنتون. (2007). النساء في لوحات المستشرقين (الإصدار 1). (مروان سعد الدين، المترجمون) دار المدى للثقافة والنشر.

إسماعيل الحداد محمد حمزة. (2008). المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية (ط 3). القاهرة: زهراء الشرق.

شافعي فريد. (1994). العمارة العربية في مصر الإسلامية (المجلد 1).مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

حواس مي. (2017). تأثير المذاهب على العمارة الإسلامية للمساجد. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

ياغي غزوان. (2021). القصور والبيوت المملوكية في القاهرة دراسة أثرية وحضارية. لايدن وبوسطن: دار بريل للنشر.

Nabila, O., & Volait, M. (2009). l'Orientalisme Architectural Entre Imaginaires et Savoirs. Paris: Publications de l'institut national d'histoire de l'art.

- **المقالات:**

إيمان عمراوي. (16 06, 2018). توظيف الحرف التقليدية في العمارة الجزائرية المعاصرة ودورها في إنعاش السياحة. دراسات فنية، 03(01)، الصفحات 06-14. تم الاسترداد من *https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/702/3/1/141241*

غماز مريم. (16 06, 2019). الدلالة الروحية والحضارية للفنان المسلم في زخارف الأرابيسك. دراسات فنية، 04(02)، الصفحات 6-14. تم الاسترداد من *https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/702/4/1/141250*

قليل سارة. (12 12, 2021). التراث العمراني والمعماري في المنمنمات الجزائرية الفنان محمد راسم أنموذجا. دراسات فنية، 6(1)، الصفحات 386-395. تم الاسترداد من *https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/702/6/1/172348*

عاطف عبد الدايم عبد الحي. (2012). التأثيرات الفنية الإسلامية في أعمال أوين جونز. مجلة دراسات في آثار الوطن العربي(12)، الصفحات 1241-1243.

بريغيث علي. (06, 2014). صورة الجزائر عند الرسام والكاتب الفرنسي أوجين فرومونتان في كتابه سنة في السهل. مجلة التراث، 4(4)، الصفحات 110-118.

عليوة منى مصطفى. (10, 2017). أثر الفنون الإسلامية في أعمال التصوير الحديث والمعاصر. مجلة العمارة والفنون، 2(8)، الصفحات 638-654.

قجال نادية. (2019). توثيق التراث المعماري الجزائري في الرسم الاستشراقي. جماليات، 5(1)، الصفحات 144-167.

زين سمير محمد. (09, 2016). الاستشراق في الفن التشكيلي سحر الشرق غذاء الروح. الصباح الجديد.

- **مواقع الانترنيت:**

نضال يوسف. (13 06, 2014). تاريخ الاسترداد 27 07, 2022، من حلب بعيون عدسات المستشرقين: *https://cutt.us/hQqTL*

النادي حنان. (30 04, 2021). دور العبادة في اعمال الفنانين. تاريخ الاسترداد 02 09, 2022، من الأهرام: *https://2u.pw/kq5YR*

Volait, M. (2019). Emile Prisse D'avennes (1807-1879). Consulté le 08 14, 2022, sur https://cutt.us/zZjru